

الشخصية التاريخية

في سيرة الظاهر بيبرس

بقلم : الدكتور قاسم عبده قاسم

يعتبر السلطان « الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى » ، بحق ، المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك التى ظلت تقوم بدور القوة الضاربة المدافعة عن الحضارة العربية الاسلامية على مدى أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان . اذ أن بيبرس بدأ تاريخه سياسى بالعمل على توحيد الجبهة العربية الاسلامية فى مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية على حد سواء . واذا كانت معركة المنصورة وفارسكور ضد الحملة الصليبية السابعة قد أثبتت جدارة فرسان المماليك ، ثم جاءت معركة عين جالوت بعدها بعشر سنوات لتؤكد أهميتهم ، فإن هذا لم يكن كافيا فى نظر المعاصرين لتبرير استيلاء المماليك على الحكم . ومن ثم فإن الجهود التى بذلها الظاهر بيبرس لتدعيم أركان الحكم ، واحياء الخلافة العباسية فى القاهرة ، وتوحيد المنطقة العربية فى مواجهة الصليبيين ، جعل من دولة سلاطين المماليك قوة عالمية مهابة تحظى باحترام القوى العالمية المعاصرة على الصعيد الخارجى ، كما جعل السلطان الظاهر بيبرس يحتل مكانة طيبة فى وجدان المصريين ، بحيث نسج الخيال الشعبى سيرة للسلطان الظاهر بيبرس ظلت أجيال المصريين تستمع الى رواياتها وتستمتع بأحداثها حتى سنوات قليلة مضت ، حين أزاحت أجهزة الاعلام الحديثة هذا النمط من الممارسات الثقافية جانبا ، وقدمت بدلا منه المسلسلات المسموعة والمرئية التى صارت تقوم بنفس الدور الاجتماعى - الثقافى الذى كانت تؤديه الملاحم والسير الشعبية قديما .

على أية حال فإن خيال الفنان الشعبي المصرى فى « سيرة الظاهر بيبرس » جعل من السلطان رمزا حمله المصريون كل رموزهم الاجتماعية ، وصبغوه بالقيم والمثل ، والأخلاقيات التى تمثلهم كما أحاطه الفنان الشعبى بمجموعة من الشخصيات الشعبية التى تجسد الشعب المصرى ، تحيطه بالرعاية ، وتمهد الطريق أمامه ، وتبذل له النصيحة ، بل تقاتل من أجله ضد رموز الحديعة والشر والعداوة .

وعلى الرغم من أن بيبرس ، الفارس والأمير والسلطان ، كان شخصية ملء العين والقلب على مسرح التاريخ ، فإن بيبرس الطفل والصبي يتوه بين ضبابية الغموض وأستار الحكايات الأسطورية . ذلك أنه كان من آحاد الناس ، ولد لأن فقيرا بذات مساء أراد أن يطفىء نار أيامه القاسية فى حضن فقيرة . ولم يكن المؤرخون فى ذلك الزمان يهتمون بالفقراء والبسطاء . كان معظم المؤرخين فى معية الحكام والسلاطين يرصدون منهم الحركة والسكون . أما آحاد الناس ، صناع التاريخ الحقيقيين ، فقد أهملتهم أقلام المؤرخين . كان الناس يصنعون التاريخ ويسرقه الحكام . ومن ثم ، لم يكن غريبا أن يهمل التاريخ شأن مولد طفل فقير يخطفه تجار الرقيق ليبيع فى أسواق النخاسة ، ولكنه حين يكبر ينتزع لنفسه دورا على مسرح التاريخ يجعله محور اهتمام التاريخ والمؤرخين زمنا يطول .

ذلكم هو السلطان الظاهر بيبرس الذى أحبه المصريون . وصاغ فنانهم الشعبى سيرة له دون سائر السلاطين . وفى « السيرة الظاهرية » جعل المصريون للظاهر بيبرس مكانة مهمة ورائعة خصوه بها دون سائر حكامهم فى تلك الفترة التاريخية ، كما أنهم جعلوا كافة الشخصيات التاريخية فى تلك الفترة وما سبقها شخوصا ثانوية فى خدمة البطل الظاهر بيبرس الذى صوروه وكأنه عصر بأكمله .

والناظر فى « سيرة الظاهر بيبرس » أو « السيرة الظاهرية » ، سوف يكتشف دون عناء شديد أن المثل الحقيقى فى هذه السيرة هو الشعب المصرى ممثلا فى الشخصيات الشعبية التى تلفت حول الظاهر بيبرس منذ البداية وهو بعد فى ميعه الصبا وعلى اعتاب مرحلة الشباب . هذه الشخصيات الشعبية هى التى تتولى بيبرس بالرعاية ، وتحدد له معالم الطريق ، وتحميه من غائلة المكائد والدسائس التى يتعرض لها باستمرار . وتتنوع هذه الشخصيات ما بين أقطاب الصوفية مثل السيد البدوى وإبراهيم الدسوقي وغيرهما الى شخصيات بسيطة تشتغل بانحرف التى عرفها المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، هذه الشخصيات المصرية تلعب الادوار الرئيسية فى سيرة الظاهر بيبرس بحيث نجدها فى كثير من مشاهد السيرة المحرك الأساسى للأحداث والوقائع . والفنان الشعبى فى « السيرة الظاهرية » أعاد انتاج الشخصيات التاريخية بالشكل الذى يخدم الهدف الاجتماعى / الثقافى لسيرة من ناحية ، ويبرز دور الفرد العادى من عامة المصريين من ناحية أخرى .

لقد أهمل التاريخ والمؤرخون الرسميون دور المصريين فى صنع تاريخهم ، وأبى الفنان الشعبى إلا أن يبرز هذا الدور ويجعل للشعب المصرى الصدارة فى صياغة هذه الفترة المهمة من تاريخنا العريق . ولعل الراوى ، أو الرواة ، أراد أن يضيف على روايته المصدقية والجدية التى تتميز بها المؤلفات التاريخية التقليدية . فذكر فى صدر روايته ما نصه : « تأليف السادات الكرام ، المشهورين بالعلم وعلو المقام ، نبراس الأفهام ، الدينارى ، ووافقه على ذلك الدويدارى ، وهما بذلك أعظم دارى ، ثم ناظر الجيش وكاتم السر ، والصاحب . فكل من هؤلاء له بحر فيها ، وما يخصها من معانيها ومبانيها ، وما أرخوه وما شاهدوه ، وما نقلوه عن السادة اخوانهم الذين يعتمدون من كلام الصدق عليهم ، وما عاينوه من كرامات الأولياء ، ومعجزات الأنبياء » (١) .

يقولها في كثير من المواقف ، ويتوجها صوت حسن في قراءة القرآن الكريم بحيث يتوقف السائرون وعابرو الطريق أمام المنزل الذي ينبعث منه صوت تلاوته - على الرغم من هذا وكثير غيره فاننا في هذه الدراسة لن نتناول شخصية الظاهر بيبرس ، لأن البناء الفني لها في السيرة يحتاج الى دراسة مستقلة ، ومن ثم فاننا سننقص اهتمامنا على الشخصيات التاريخية الأخرى التي أعاد الوجدان الشعبي انتاجها في « سيرة الظاهر بيبرس » ، بحيث تخدم الهدف الاجتماعي / الثقافي لهذه السيرة .

ويهمني ، بداية ، أن أؤكد أن هذه الدراسة تطرح مجموعة من التساؤلات وعلامات الاستفهام والتعجب أكثر مما تقدم من اجابات . كما أنها لا تزعم تقديم الحلول لكافة المشكلات التي يثيرها التركيب الدرامي لشخصيات « السيرة الظاهرية » . ورب قائل بأن هذا النمط من صياغة شخوص العمل الفني لا يدخل في نطاق البحث التاريخي ، ولكن البحث عن العلاقة بين كيفية بناء الخيال الشعبي للشخصيات التاريخية وإعادة انتاج الأحداث التاريخية بشكل يوافق الوجدان الشعبي من جهة ، وبين الدور التاريخي الفعلي لهذه الشخصيات التاريخية من جهة أخرى ، قد ينير السبيل أمامنا للتعرف على المواقف الوجدانية والشعورية الحقيقية للشعب ازاء الشخصيات والأحداث التاريخية . ومن ثم ، فإن بحثنا لا يستهدف كشف الأبعاد التاريخية التقليدية لأبطال التاريخ المصري والعربي في تلك الفترة من تاريخنا ، وإنما يسعى الى رسم صورة عامة وتقريبية لموقف جماهير المصريين من أحداث تلك الفترة التاريخية وأبطالها الذين حرص المؤرخون على تدوين أعمالهم : جليلها وحقيرها .

تبدأ أحداث « سيرة الظاهر بيبرس » برواية فرعية مكانها بغداد عاصمة الخلافة العباسية . وهذه الرواية الفرعية تمهد للغزو المغولي لبغداد ، فيقول الراوي : « كان من قديم

هكذا تبدأ السيرة بمحاولة للإيهام بأنها اعتمدت على مصادر تاريخية معتمدة ، ولكننا نعتقد أن هذا النص قد وضع بقصد التأثير على السامعين . وعلى الرغم من هذا فانه من المحتمل أن يكون الراوي ، أو الرواة ، يستخدمون أسماء مؤرخين حقيقيين عاشوا في تلك الفترة التاريخية وسجلوا أحداثها . فمن المعروف أن « الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار الناصري المنصوري » قد سجل أحداث هذه الفترة حتى عصر السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وسجل أحداثها في كتابيه « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » (٢) و « التحفة الملوكية في الدولة التركية » (٣) وربما تكون السيرة تشير اليه بكلمة « الدويداري » ، وربما يكون الأمر مجرد استخدام لأسماء وألقاب بقصد أحداث التأثير على السامعين .

واللافت للنظر هنا أن « سيرة الظاهر بيبرس » تمهد لأحداثها بقصيدة طويلة عن فضائل مصر ، بحيث يحبها بيبرس ، وهو ما يزال في بلاد الشام ، ويتمنى أن يطير إليها (٤) وهنا ينبغي أن نلاحظ أن السيرة الشعبية لم تخرج عن القاعدة التي أتبعها المؤرخون المصريون آنذاك في حديثهم عن تاريخ بلادهم منذ الفتح الاسلامي . فقد حرصوا على التنويه بفضائل مصر في بداية كتبهم ، وصار هذا تقليدا في الكتابة عن تاريخ مصر منذ « عبد الرحمن بن عبد الحكم » حتى نهاية عصر سلاطين المماليك على أقل تقدير . وقد كان من المناسب تماما ، للسيرة الظاهرية (التي تجسد دور عامة المصريين في صنع تاريخ تلك الفترة) أن يبدأ روايته بالحديث عن فضائل مصر .

وعلى الرغم من أن السيرة حورت كثيرا في شخصية السلطان الظاهر بيبرس نفسه . بحيث انتحلت له نسباً ملوكياً ، وجعلت الاسلام دين آبائه وأجداده على مدى أجيال عدة ، كما جعلت له اسماً عربياً ، وجعلته نتاج ثقافة وتربية عربية اسلامية تتبدى في فصاحة لسانه وحسن بيانه والقصائد التي

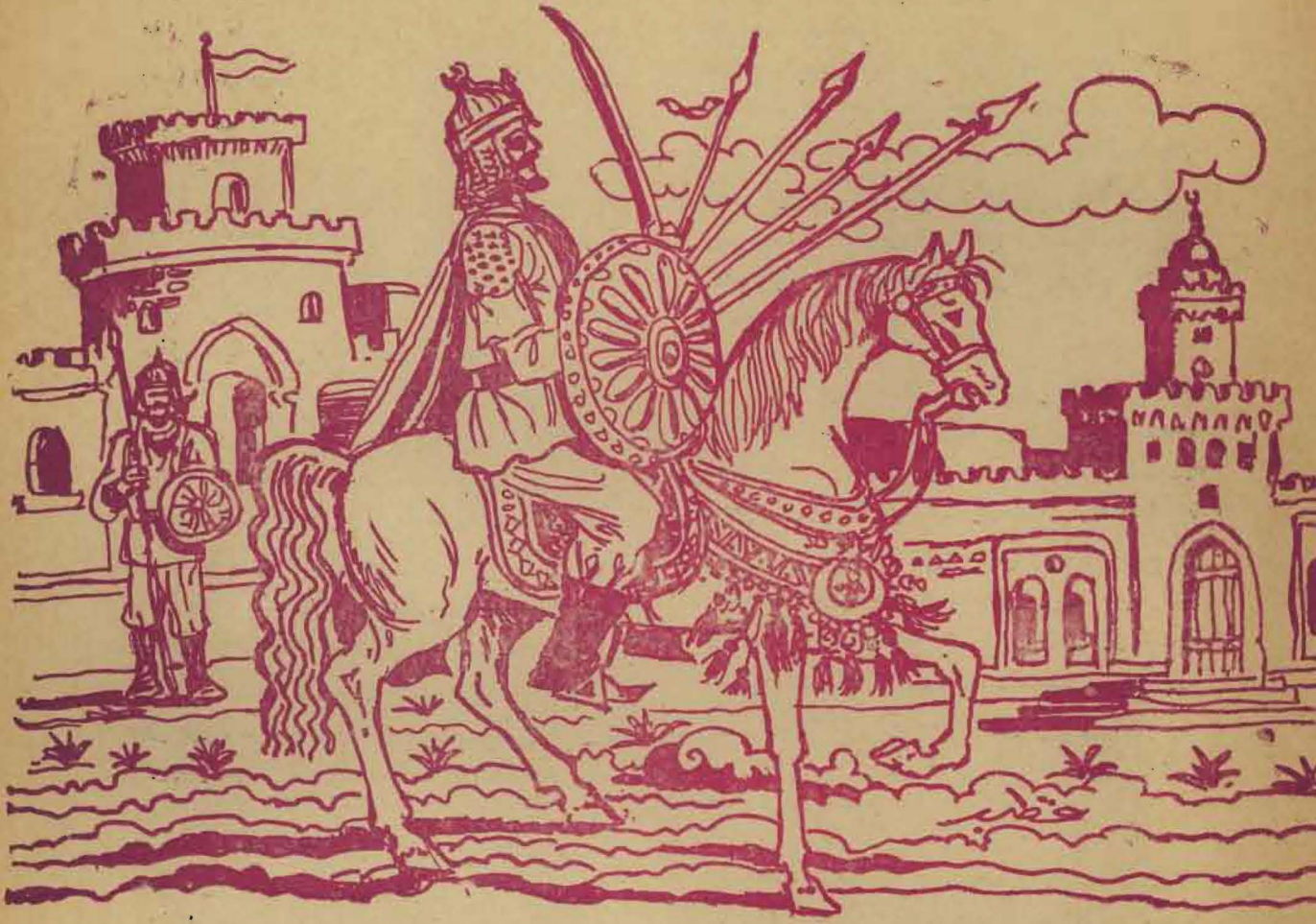
الزمان ، وسالف العصر والأوان ، بعد أن توفى الى رحمة الله المتعصم بالله وتولى الخلافة بعده الواثق بالله ولده ومات الى رحمة الله ، وتولى المقتدى بالله ، وهو شعبان المقتدى بأرض بغداد ، وكان له وزير يقال له العلقمي . . ولا عبرة هنا بالأسماء والتتابع التاريخي ، فهو لا يهم الراوى سوى من حيث التأثير على السامعين من ناحية ، والتمهيد للدخول في الحدث الفني - وليس التاريخي - من ناحية أخرى . وتستمر الرواية لتقول ان نزاعا نشب بين ابن الخليفة وابن الوزير العلقمي بسبب اللعب بالحمام وتطيره ، فأمر الخليفة بذبح حمام ابن الوزير مما أغضب الوزير العلقمي الذي أرسل الى « منكنم » ملك المغول يدعوه الى غزو بغداد (٥) .

واللافت للنظر هنا أن الخيال الشعبي يختار سببا تافها للغزو المغولي ، وهو النزاع على الحمام بين ابن الخليفة وابن الوزير . فهل يمكن أن تكون تلك إشارة الى حال اللهو والتفاهة التي كان عليها الخليفة « المستعصم بالله عبد الله » آخر الخلفاء العباسيين الذي ذبحه المغول (٦) ؟ أم أنها رمز لمدى تدهور أحوال الخلافة العباسية في سنوات عمرها الأخيرة ؟ ومن المهم أن نشير هنا الى أن الوزير « ابن العلقمي » شخصية تاريخية حقيقية أشارت بعض المصادر العربية الى تأمره مع هولاكو لكي يرسل بعض جواسيسه الى عاصمة الخلافة العباسية حيث عقدوا اتفاقا مرييا معه ومع غيره من الأمراء « . . والخليفة في لهو لا يعبأ بشيء . . . » .

كذلك نجد أن السيرة تجعل زعيم المغول « منكنم » وتجعل له ولدين هما « هلاون » و « كلب زيد » وتجعله حفيدا لكسرى انو شروان الامبراطور الفارسي الشهير في كتب المؤرخين العرب ، كما تجعله من عبدة النار وتصفه بأنه « . . فارس جبار وبطل مغوار ، لا يعد له على جار ، وهو فارس شديد ، وبطل صنديد ، وشيطان مريد ، وكان يعبد النار دون الملك الجبار ، وعنده عساكر بعدد قطر البحار

هذه الصورة الرهيبة التي رسمتها « سيرة الظاهر بيبرس » للتتار توافق الى حد كبير تلك الصورة المفزعة التي صورتها أقلام المؤرخين المعاصرين لأولئك القادمين من سهوب الاستبس في آسيا ، يزرعون الموت والدمار والفرع في بلدان العالم آنذاك . ومن المهم أن نشير هنا الى أن خان التتار الأعظم « منكو خان » حفيد جنكيز خان ، هو الذي حرفت السيرة اسمه الى منكنم . وكان هذا الخان قد أرسل

حملتين في منتصف القرن السابع الهجري (١٣ م) ، احدهما ضد الصين ، والأخرى بقيادة هولاكو (هلاون) لتدمير الخلافة العباسية . وقد تمكن هولاكو فعلا من تدمير الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هجرية (١٢٥٨ م) وسالت الدماء أنهارا في العاصمة التي كان اسمها ذات يوم مرادفا للحضارة والقوة والمجد . وكان وقع الصدمة مريرا وعنيفا في نفوس المسلمين الذين وجدوا أنفسهم بدون



أكبر من الحرية في نسج بقية الأحداث بالشكل الذي يجعلنا نلتقي مع شخصيات تاريخية أخرى من أبطال تلك الفترة في صياغة جديدة تعبر عن الوجدان الشعبي أكثر مما تفصح عن الحقيقة التاريخية .

وتختار السيرة شكلا مثيرا لظهور « صلاح الدين الأيوبي » على مسرح الأحداث . وهنا نجد الخيال الشعبي يتصرف بحرية تامة في الأحداث التاريخية وأماكن وقوعها . وهنا ينبغي أن نتنبه الى أن الفنان الشعبي لا يهتم برواية التاريخ رواية صحيحة (فهو ليس مؤرخا بأي حال من الأحوال) ، وإنما يوظف الاسماء والأماكن والأحداث التاريخية في خدمة هدفه الفني . ومهمتنا هنا ليست البحث عن

خليفة للمرة الأولى في تاريخهم ، وخيل للمسلمين « ٠٠ أن العالم على وشك الانحلال ، وأن الساعة آتية عن قريب ٠٠ » على حد تعبير مؤرخ معاصر .

وربما كانت ذكريات هذا الهول هي التي جعلت الخيال الشعبي يحتفظ بهذه الصورة الرهيبة للتتار في « السيرة الظاهرية » . والمهم هنا أن الفنان الشعبي اختار هذه الحادثة الكبرى في تاريخ المسلمين لتكون بمثابة التمهيد للسيرة ، ولتكون مدخلا مناسبيا لانتقال الأحداث الى مسرح السيرة الرئيسي في مصر وبلاد الشام . وعلى الرغم من أن الفنان الشعبي لم يبتعد كثيرا عن الحقيقة في هذه المقدمة ، فإنه أطلق لنفسه العنان ومارس قدرا

وقائع التاريخ ، ولكن أن نحاول رصد الدلالات الاجتماعية والمغزى الثقافي الكامن وراء هذا النمط من الاستخدام الشعبي للتاريخ وصولا الى فهم حقيقة النفسية الشعبية والموقف الوجداني للناس تجاه حوادث التاريخ وشخصه .

ولنعد الى السيرة . اذ يحكى الراوى أن « هلاون » ما كاد يجلس على عرش الخلافة العباسية بعد دخول بغداد ساعة زمن « ٠٠ حتى دخل عليه من باب القصر خمسة وسبعون من الاكراد ، وعليهم آثار العباد ، وهم متقلدين بسيوف من خشب ، وهم ينادون : لا اله الا الله محمد رسول الله ، فلما رأهم أجمعين اللعين هلاون قال لمن حوله : ما هؤلاء ؟ فقالوا له : اعلم يا ملك الزمان حفظتك النيران أن هؤلاء من فقراء المسلمين ، وأظنهم ما أتوا الى هنا الا يهنوك بسلامتك ويطلبون احسانك ، وهم يذكرون الله تعالى ، ويدرون في الأرض ، ويأكلون من رزق الله ، ويطوفون البلاد ويحبونهم كل العباد ٠٠٠ » (٨) .

هكذا كان ظهور الأيوبيين لأول مرة في « سيرة الظاهر بيبرس » على هيئة الصوفية . ونجد هنا رمزا واضحا للبعد الدينى العاطفى فى حياة المجتمع المصرى آنذاك . فمن المعروف أن الصوفية قد باتوا يلقون التقدير العاطفى بعد أن اشتد ساعد الحركة الصوفية بسبب الحروب الصليبية وحركة الاحياء السنن التى لازمت حركة الجهاد الاسلامية ضد النصليبيين . ومن المعنوم أيضا أن « صلاح الدين الأيوبي » قد اعتمد ، بدرجة كبيرة ، على المتصوفة فيما يمكن أن نسميه التعبئة المعنوية لجماهير المسلمين فى مواجهة العدوان الصليبي وكان يصحبه عدد منهم أثناء تحركات جيوشه ضد الفرنج . وربما يكون الخيال الشعبي قد اختار هذه الصورة المحببة الى نفوس العامة لظهور الأيوبيين على مسرح الأحداث تقديرا لدور « صلاح الدين الأيوبي » فى خدمة قضية الاسلام والمسلمين واسترداد بيت المقدس .

ولنواصل قراءة هذا الجزء من « السيرة الظاهرية » . يقول الراوى : « أمر هلاون بطردهم فصاحوا : الله أكبر ، وأجابهم من الخارج سبعون ألفا من الأكراد ٠٠ وكان المقدم على تلك الأكراد رجل يقال له يوسف صلاح الدين فقام عى حيله ، وما قصد الا السجن الذى فيه أمير المؤمنين ، وضرب باب السجن بيده ، فانكسر الباب ، بإذن مسبب الأسباب ٠٠ » وانتهت المعركة بهروب هلاون واثنين من رفاقه (٩) .

هنا نجد خلطا شديدا فى الادوار والأحداث التاريخية ، كما نجد صياغة الحدث انفى تتخذ شكلا تعويظيا نفسيا ، فالسيرة تجعل الخليفة سجيناً لا يلبث أن يجد من يكسر باب سجنه ، على حين يخبرنا التاريخ أن الخليفة قد لقي مصرعه بشكل مهين . بيد أننا يمكن أن نجد لهذا كله تبريرا فنيا يوافق العقلية الشعبية (صاحبة المصلحة الحقيقية فى الرواية) ، كما أنه تمهيد لنقل الأحداث الى المسرح الرئيسى للسيرة الظاهرية ، أعنى مصر وبلاد الشام .

وتذكر السيرة أن سبب قدوم « هؤلاء الاكراد الأيوبيية » الى بغداد يرجع الى أن سيولا وثلوجا نزلت ببلادهم فقتلت مزارعها وأخرجت الأرض . فذهبوا الى كبيرهم « صلاح الدين الأيوبي » الذى أمرهم بأن يسيروا الى أمير المؤمنين لعله يمنحهم أرضا خصبة يقيمون بها . وفى الطريق يقابلهم أحد الزهاد ويطلب منهم ترك السيوف والدروع الحديد ، وأن يتقلدوا سيوفا خشبية وتروسا من شجر الجميز ٠٠٠ وبهذه الاسلحة يهزمون التتار (١٠) .

هنا ، مرة أخرى ، نجد تأكيدا على الرمز الدينى العاطفى من خلال رموز الصوفية كما فهمها أبناء تلك العصور . ومن المهم ان نلاحظ أن الراوى ، أو الرواة ، كان يخاطب الناس بما يرضيهم ويكسب تعاطفهم من جهة كما يمثل لهم مثلهم العليا وقيمهم ورموزهم فى شخوص تاريخية من جهة أخرى . وهكذا

مقاتل • وتمضى السيرة لتصوغ أحداثها صياغة تعويضية ترضى الوجدان الشعبى الذى عانى صدمة سقوط الخلافة العباسية أمام هجمات التتار • اذ يقول الراوى ان عددا كبيرا من أمراء التتار سقطوا أسرى بأيدي المسلمين واستنجدوا بصلاح الدين الأيوبي الذى طلب من الخليفة أن يبقى على حياتهم مقابل فدية كبيرة • ويستجيب الخليفة فيدخل أولئك الأمراء فى طاعته • وعندئذ يمنح الخليفة صلاح الدين أرض مصر والشام •

هنا تبدأ الاشكالية الأولى فى السيرة بالاشارة من طرف خفى (لا يلبث أن يصير صريحا واضحا فيما بعد) الى مدى شرعية الحكم الأيوبي لمصر • لقد أعطى الخليفة العباسى حكم مصر لصلاح الدين ناسيا أنه كان قد منحها قبل ذلك لابنته شجرة الدر • فهل يمكن أن يكون موقف الفنان الشعبى تعبيرا عن موقف عامة المصريين تجاه حكم الأيوبيين ؟ وهل يمكن أن تكون هذه الصياغة الفنية رد فعل للطريقة التى استولى بها صلاح الدين الأيوبي على حكم مصر حين كان وزيرا للخليفة العاضد آخر الفاطميين وعزله ومات وهو لا يعلم أنه آخر الفاطميين ؟ وهل يمكن أن يكون هذا الموقف من الأيوبيين تعبيرا عن رفض المصريين لسياسة كانت تعتبر بلادهم مجرد مصدر للمال والرجال يستعين صلاح الدين فى حكمها بمجموعة من أهل الشام والعراق الذين كتب بعضهم مستهينا بالمصريين وبلادهم ؟ وهل يمكن أن يكون السبب فى ذلك راجعا الى أن « صلاح الدين الأيوبي » غاب كثيرا عن مصر بسبب ضرورات الجهاد ضد الصليبيين ، وبذلك لم يعرفه المصريون عن قرب على الرغم من انهم قد حفظوا له الجميل حين قاد حركة الجهاد الاسلامى لهزيمة الصليبيين واسترد منهم بيت المقدس ؟

هذه الاسئلة ، وما قد يتفرع عنها بالضرورة من أسئلة جديدة ، تطرح نفسها دون أن نجد لها اجابة شافية وافية حتى الآن •

قدمت « السيرة الظاهرية » الناصر صلاح الدين الأيوبي فى صورة بطل يتجلى فى شخصيته البعد الدينى بوضوح شديد ، كما يظهر البعد العسكرى فى انتصاره الساحق على التتار واناقد خليفة المسلمين • وعلى الرغم من أن « صلاح الدين الأيوبي » اكتسب شهرته التاريخية الحقيقية بفضل جهاده ضد الصليبيين واسترداد بيت المقدس ، فان السيرة الشعبية لم تعبأ بهذه الحقيقة التاريخية الثابتة فى سبيل الصياغة الفنية • وليس من الانصاف أن نحاسب الفنان الشعبى بمقاييس المؤرخ الصارمة ، فان هدفه الفنى ذو أبعاد ثقافية / اجتماعية تحفل بالرموز والدلالات أكثر مما تحتفى بالحقائق التاريخية المجردة •

ومن هذا المنطلق تقدم لنا السيرة الشخصية التاريخية التالية وهى « شجر الدر » والسيرة تجعلها ابنة الخليفة العباسى الذى تسميه « شعبان المقتدى بالله » • وتحكى السيرة أن هذا الخليفة لم يكن ينجب بنات ، وسأل الله تعالى أن يرزقه بنت ، فاستجاب الله ورزقه بنت رائعة الجمال اختار لها اسم « فاطمة » ، فلما بلغ عمرها سبع سنوات أمر أن تصنع لها بدلة من الدر • وحين خرج من السجن بفضل « صلاح الدين » جاءته ابنته وهى ترتدى البدلة ، فقال انها مثل شجرة الدر • • فكنيت بشجرة الدر من تلك الساعة أو بعد ذلك • • (١١) •

ومن المثير حقا أن الراوى يشير الى الروايات التى تقول ان « شجر الدر » جارية فى الأصل ، ولكنه لا يلبث أن ينفى هذه الروايات فى حسم بقوله : « • • ولكن الأصح أنها من ظهره بلا محال ، وانما ذكرنا ذلك لاختلاف الأقوال • • »

ومن خلال حكاية فرعية تخبرنا السيرة أن الخليفة وهب أرض مصر لابنته شجر الدر ثم تقع معركة جديدة يقوم الأيوبيون فيها بهزيمة جيش مغولى ضخم عدده مائة ألف

على أية حال ، تتحدث السيرة عن دخول صلاح الدين الى مصر فى موكب دينى وليس فى موكب عسكري . وتذكر أنه صعد الى قلعة الجبل (١٢) ، وجلس على الكرسي ، وحوله أولاد عمه . ثم رزق بولدين أحدهما يقال له العادل والآخر يقال له الكامل ، ثم يموت صلاح الدين عندما يعلم نبأ وفاة ابنه العادل (١٣) . ولا عبرة هنا بالأسماء أو الأحداث فإن الراوى يمر بها مسرعاً ، ويستخدمها لكى يصل الى نقطة أخرى مهمة فى روايته ، وهى ظهور شخصية تاريخية جديدة تحتل مكانة هامة فى « سيرة الظاهر بيبرس » وهى شخصية الصالح نجم الدين أيوب .

ومرة أخرى تجد أنفسنا فى مواجهة عدة أسئلة تطرح نفسها عن موقف السيرة من الأيوبيين جميعاً ، فهى تمر بسرعة بأبناء البيت الأيوبرى بعد صلاح الدين . وتكاد السيرة أن تتجاهل السلطان الكامل الأيوبرى ، إذ أن الراوى ، أو الرواة ، لم يذكر اسم « الكامل » سوى مرة واحدة فى سياق التمهيد لظهور « الصالح نجم الدين أيوب » . فهل يمكن أن يكون لهذا الموقف الوجدانى الشعبى وتجاهله للسلطان الكامل مبرراته فى الحقيقة التاريخية القائلة بأن الكامل هو الذى سلم مدينة بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثانى - دون قتال - فى غمرة أحداث ما يعرف بالحملة الصليبية السادسة ؟

لقد عاد الإمبراطور فردريك الثانى من فلسطين فى يونيو سنة ١٢٢٩ م ، دون قتال ودون خسارة فى الرجال أو العتاد ، وإنما بمكاسب لم تستطع الحملات التى جردها الغرب الأوروبى تحت راية الصليب منذ أيام صلاح الدين أن تحقق شيئاً منها أو قريباً من مستواها . فقد حققت الحملة الصليبية السادسة - على الرغم من طابعها السلمى - نجاحاً يعادل ما منيت به الحملة الخامسة من فشل على الرغم من طابعها العسكرى العدوانى .

أما العالم الإسلامى ، فقد رأى فى هذه الهدنة التى عقدها السلطان الكامل كارثة حقيقية . ولم يستطع أحد من العرب والمسلمين أن يوافق على ما زعمه السلطان من أن الهدنة - التى كان ثمنها بيت المقدس - خدمة للمسلمين . وامتألت مساجد القاهرة ودمشق وبغداد ، وغيرها من مدن العالم الإسلامى الفسيح بالخطباء الناقمين على السلطان المتخاذل الذى ضحى بالمصلحة الإسلامية العامة فى سبيل مكاسبه الإقليمية الضيقة . وعلى الرغم من أن السلطان بعث رسله وسفراءه فى شتى أنحاء العالم الإسلامى لتبرير فعلته ، فإن رأى العام الإسلامى لم يغفر له هذا الخطأ الفادح بتسليم رمز من أهم رموزه الدينية والحضارية للعدو . وقد عبر المؤرخ ابن واصل عن هذا الموقف بقوله : « ... وللكمال هفوة جرت منه ، عفا الله عنه ، لأنه سلم بيت المقدس الى الفرنج اختياراً . نعوذ بالله من سخط الله ومن موالة أعداء الله ... » أما « تقى الدين المقرئى » فيرسم لنا صورة أكثر حيوية لرد الفعل الشعبى تجاه فعلة السلطان الكامل فيحكى قصة الهدنة بين الكامل وفردريك الثانى ، ومدتها عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً ، ثم يقول : « ... وبعث السلطان فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه ، وتسليمه الى الفرنج ، فاشتد البكاء ، وعظم انصراح والوعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس الى مخيم الكامل ، وأذنوا على بابه فى غير أوقات الصلاة . فعز ذلك عليه ، وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات وزجرهم . وقيل لهم : امضوا حيث شئتم . فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء ، واشتد الإنكار على الملك الكامل ، وكثرت الشفاعات عليه فى سائر الاقطار ... » (١٤) .

هكذا يمكن تفسير موقف الفنان الشعبى فى « سيرة الظاهر بيبرس » من السلطان الكامل باعتباره انعكاساً لموقف عامة الجماهير ، وتعبير عن الموقف الشعبى الحقيقى من هذا

السلطان • لقد استخدمت السيرة اسم الكامل باعتبارها والد « الصالح نجم الدين أيوب » الذي تضعه السيرة في مكانه مناقضة لمكانة الكامل إذ أن السيرة تصف الصالح بما نصه : « ... كان ولده الملك الصالح قد زهد في الدنيا ورغب في الآخرة ، وقرأ القرآن وعرف الحلال من الحرام ، فعبد الملك العلام ، وصار من عباد الله الصالحين ، وهو من صغر سنه على الفلاح واليقين ولا يجالس أهل الدولة ، ولا يحضرهم في حكومة ، فسهوه الأكراد » الصالح نجم الدين أيوب ولي الله المجنوب ، ولما تولى السلطنة اشترط على نفسه ألا يأكل من السلطنة ولا يأخذ شيئا من أموال المملكة ، ولا يأكل سوى من كسب يده .. » (١٥) .

هذه الصورة ، التي توافق خيال العامة وترضى نفوسهم وتلقى القبول الوجداني لديهم ، تكتمل ملامحها بما يرد على لسان الصالح نجم الدين أيوب نفسه ، إذ يقول : « ... أنا رجل أظفر الخوص وأعمل المقاطف ، ولا أعرف السلطنة ولا أعرف أحكامها » . كما أنه حين يختار لنفسه وزيرا يجعل توليته في مسجد الحسين (١٦) .

وتخلق السيرة موقفا يتقابل فيه « الصالح نجم الدين أيوب » مع « شجر الدر » . وهو موقف فني صاغه الفنان الشعبي ولا يتصل بالحقيقة التاريخية من قريب أو بعيد ، ولكنه قد يحمل بعض الدلالات ذات المغزى عن موقف المصريين من الأيوبيين عموما ، كما يفسر موقفهم من الصالح نجم الدين أيوب وشجرة الدر من جهة أخرى . تقول الرواية : « ... فيوم من الأيام بينما الملك الصالح جالس ، وإذا أربعة يقبلون الأرض بين يديه ، فقال الملك الصالح ما الخبر ؟ فقالوا يا أمير المؤمنين أننا رسل السيدة فاطمة شجرة الدر بنت أمير المؤمنين المقتدر بالله تعالى . وقد أمرتنا أن نقول لك ان الأرض أرضها ومصرها ، وأن حجتها معها ، وهي تأمرك أن تنزل من على التخت ، وهي توليه لمن تريد من السادات أو العبيد ... » (١٧) .

هكذا تشير السيرة صراحة الى عدم شرعية حكم الأيوبيين لمصر • فهل يمكن ان نربط بين هذا الموقف الفني للفنان الشعبي من جهة ، وثورة القبائل العربية ضد المعز أيبك في بداية عصر المماليك وقول زعيمهم « حصن الدين ثعلب » • « ... نحن أصحاب البلاد ، وأنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أننا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد ... » (١٨) ؟ أم أننا يمكن أن نقول ان المبرر الوحيد لقيام سلطة الأيوبيين أن صلاح الدين وظف طاقاته ومواهبه في خدمة أهداف أمته • ولكن الأيوبيين - بعده - دخلوا في سلسلة من المنازعات المحلية الضيقة ضد بعضهم البعض ، بل ان بعضهم استعانوا بالصليبيين بحيث فقدوا المبرر الحقيقي لاستمرار سلطتهم .

ولكن الفنان الشعبي في الوقت نفسه لا يريد لبطل في مكانة « صلاح الدين الأيوبي » أن يبدو مقتصبا للحكم في مصر ، فيجعل السبب في هذه الاشكالية ناتجا عن أن الخليفة العباسي منح الحكم لابنته ثم نسي ومنحه مرة أخرى للمناصر (صلاح الدين يوسف) ومن ناحية أخرى ، تبدو السيرة متعاطفة تماما مع « شجر الدر » • فيضفى الخيال الشعبي عليها بعض الصفات المحببة في نفوس العامة ، ويجعل لشخصيتها بعدا دينيا محببا • إذ تحكي السيرة أن « شجرة الدر » كانت قد رغبت في الإقامة بالحجاز وانفاق أموالها على الفقراء وأصحاب العيال ، وظلت تطوف البلاد وتواسي المرضى والفقراء حتى وصلت الى أرض مصر • وحين وجدت أن أحدا لم يرحب بها غضبت لأن مصر ملك لها ، فأرسلت الرسل الأربعة الى « الصالح أيوب » (١٩) •

على أية حال ، تقول السيرة ان « شجرة الدر » ذهبت للقاء الملك الصالح في القلعة • وأشار عليه وزيره أن يتزوجها حتى تثبت له المملكة • ورفضت شجرة الدر في بادئ الأمر عرض الزواج الذي قدمه لها

الوزير نيابة عن السلطان . ولكن كرامات « الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجدوب » تجعلها توافق على الزواج . وبعد ذلك ظلت طوال اثني عشر عاما تحج سنويا الى الحجاز وهى بكر عذراء ، ثم دخل بها السلطان بعد ذلك (٢٠) .

ويجدر بنا أن نتوقف أمام هذه الصورة المحببة شعبيا والتي ترسمها السيرة لكل من الصالح نجم الدين أيوب وشجرة الدر . لقد جعل الخيال الشعبى من الملك الصالح ملكا عادلا يكره أن يأكل من ضرائب الدولة التى أسماها المعاصرون « المظالم » و « المغارم » و « المصادرات » و « الكلف » - تعبيرا عن رأيهم فيها . ولأن العقلية العامة تميل الى المبالغة والتطرف ، فان الفنان الشعبى صور الصالح أيوب فى صورة الزاهد صاحب الكرامات ، وفاعل الحوارق والمعجزات ، كما أنه لا يأكل سوى من عرق يديه . اذ أنه يظفر الحوص ولا يأكل سوى أكل سواد العامة من الدقة والقراقيش . أما شجرة الدر ، فان حظها كان كبيرا من كرم الخيال الشعبى . فقد جعلتها السيرة ابنة شرعية للخليفة العباسى ، وحاكمة شرعية لمصر - على الرغم من أنها لم تجلس على العرش - ولا يكتسب حكم الملك الصالح فى مصر شرعيته سوى بالزواج منها . كما أنها سيدة متدينة عطوف محسنة تتجول فى البلاد لتحسن الى العباد على نحو ما يحدثنا راوى السيرة . ومن المهم أن نشير هنا الى أن السيرة جعلت كلا من الملك الصالح وشجرة الدر بمثابة الأب والأم لبطل السيرة « الظاهر بيبرس » ، فان الصالح يرباه طوال مراحل حياته ويرقيه فى الخدمة ، على حين تتبناه شجرة الدر .

وربما يكون من الأفضل أن نتعرف على المخطوط العامة لشخصية « الصالح نجم الدين أيوب » و « السلطانة شجرة الدر » كما تصورهما المصادر التاريخية ، لكى نعرف كيف يعيد الوجدان الشعبى انتاج التاريخ وأبطاله وحوادثه من ناحية ، ونحاول أن نتلمس السبب فى ذلك من ناحية أخرى .

يقول المقرئى عن « الصالح نجم الدين أيوب » : « ٠٠٠ كان ملكا شجاعا حازمنا مهيبا لشدة سطوته وفخامة ناموسه ، مع عزة النفس وعلو الهمة ، وكثرة الحياء والعفة وطهارة الذيل عن الخنا ، وصيانة اللسان من الفحش فى القول ، والاعراض عن الهزل والعبث بالكلية ، وشدة الوقار ولزوم الصمت ، حتى انه كان اذا خرج من عند حرمة الى مماليكه أخذتهم الرعدة عندما يشاهدونه خوفا منه . ولا يبقى منهم أحد مع أحد . واذا جلس مع ندمائه كان صامتا لا يستفزه الطرب ولا يتحرك ، وجلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير . واذا تكلم مع أحد من خواصه كان ما يقوله كلمات نزرة ، وهو فى غاية الوقار . . . ومع هذه الشهامة والمهابة لا يرفع بصره الى من يحادثه ، حياء منه وخفرا . ولم يسمع منه قط فى حق أحد من خدمه لفظة فحش ، وأكثر ما يقول اذا شتم أحدا « متخلف » ، لا يزيد على هذه الكلمة ، ولا عرف قط من النكاح سوى زوجته وجواريه . . » (٢١) .

هذه هى ملامح شخصيته ، فكيف كانت أيام حكمه ؟ يقول المقرئى : « ٠٠٠ وكانت البلاد فى أيامه آمنة مطمئنة ، والطرق سابلة . . . وكان يجرى على أهل العلم والصلاح المعاليم والجرايات ، من غير أن يخالطهم ، ولم يخالط غيرهم لمحبه فى العزلة ورغبته فى الانفراد ، وملازمته الصمت ، ومداوخته على الوقار والسكون . . » .

هذه هى ملامح الشخصية التاريخية للملك الصالح الذى مات وهو يقود المعركة ضد الفرنج من فراش المرض . فقد كانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة « لويس التاسع » ملك فرنسا قد تمكنت من أخذ دمياط دون قتال فى شهر صفر سنة ٦٤٧ هجرية (يونيو ١٢٤٩ م) . واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط المدينة التى حرص على تحصينها بمزيغ من مشاعر المرارة والألم والغضب . فعاتب قادة الحامية المنسحبة بكلمات مريرة عنيفة .

وأعدم عددا من الفرسان الذين هربوا من المعركة ، ولكنه لم يستسلم للهزيمة . ونقل معسكره الى المنصورة التى كانت قد أنشئت قبل ثلاثين سنة فقط من هذا التاريخ . وشرع الجنود والأهالى فى ترميم أسوار المدينة وتحصينها تحسبا لقدم الصليبيين .

وفى غمار الاستعداد للمعركة أحس السلطان بدنو أجله ، فنودى فى مصر « ٠٠ من كان له على السلطان ، أو عنده ، شئ فليحضر ليأخذ حقه ٠٠ » فطلع الناس وأخذوا مالهم . ومن ناحية أخرى بدأت القوات المصرية تتوافد على مدينة المنصورة : فيها هى كتائب فرسان المماليك ، وفرسان العربان ، والمتطوعون الذين جاءوا فى أعداد كبيرة لمواجهة الصليبيين . وماجت المدينة الفتية بالحركة والنشاط حول القصر السلطانى الذى كان يرقد بداخله السلطان المريض ، وقد غلبت شجاعته مرضه ، وبات مؤرقا بالرغبة فى الانتقام ٠٠٠ ولكن الموت سبق السلطان فمات عن أربع وأربعين سنة فى معسكره بمدينة المنصورة شهيدا فى ساحة القتال .

هذه هى صورة « الصالح نجم الدين أيوب » فى كتب التاريخ ، وهذا هو دوره فى الدفاع عن البلاد ضد العدوان الصليبي . لقد مات فى ريعان الشباب بعد حياة مأساوية صاحبها المرض الطويل ، وكان موته فى ساحة الجهاد . فهل يمكن أن يكون هذا هو السبب فى أن الخيال الشعبى حين أعاد إنتاج صورة الملك الصالح فى السيرة صلبا فى ذلك القالب الذى يحظى بقبول شعبى واسع ، بحيث يعفيه من مسئولية الممارسات الخاطئة للإدارة الحكومية ، وبحيث يجعله مجذوبا من أهل الكرامات ٠٠٠ ينكشف عنه الحجاب ، ويأتى بالخوارق والمعجزات ، وتصدر عنه الكرامات ؟ وهل يكون من الشطط فى التقدير أن نقول ان الخيال الشعبى وضعه فى هذا المكان بسبب سيرته وجهاده معا . ان السيرة تقدمه على أنه « الملك الصالح والزناد القادح ، والبحر

المليان السايح ، الصالح أيوب ولى الله المجذوب ابن الفاضل بن الكامل بن سعيد السعدا ، بن شهيد الشهداء ، ينسب الى حبيب التجار الذى ينسب الى سيدنا نوح عليه السلام ٠٠ » (٢٢)

من ناحية أخرى ، اختارت « السيرة الظاهرية » الملك الصالح ليكون صاحب الفضل فى قدوم بيبرس الى مصر ، كما كان هو المسئول عن رعايته (٢٣) . كذلك فان الفنان الشعبى جعل النبؤات تتكرر على لسان الصالح أيوب فى عدة مواقف لتنبئ بقدوم البطل . فهل يمكن أن يكون الوجدان الشعبى قد اختار « الملك الصالح » لهذا الدور بسبب سيرته الحسنة أثناء الحكم ، وموقفه البطولى من الحملة الصليبية السابعة ؟ أم أننا يمكن أن نرجع السبب فى بساطة الى الحقيقة التاريخية القائلة بأن الصالح أيوب هو الذى كون طائفة المماليك البحرية الذين كان بيبرس البندقدارى واحدا من أبرز زعمائهم (٢٤) ؟

أما « شجرة الدر » ، فقد قامت بدورها فى مواجهة العدوان الصليبي على نحو رائع يتسم بالتفانى والاخلاص وقوة العزيمة . فعندما توفى السلطان أحضرت كلا من الأمير « فخر الدين بن شيخ الشيوخ » ، والطواشى « جمال الدين محسن » وكانا أقرب الناس الى السلطان والمسئولين عن الجيش والمماليك والحاشية . وأعلمتهما ب وفاة السلطان . وطلبت منهما كتمان الخبر فى الظروف الحرجة التى كانت تمر بها المعركة ضد الصليبيين . فاتفقا مع « شجرة الدر » على القيام بتدبير المملكة الى أن يحضر السلطان المعظم توران شاه بن الصالح أيوب لتولى العرش . وظلت « شجرة الدر » تقوم بدور السلطان الذى لم يعرف الناس بوفاته الا بعد حين .

وجاء « المعظم توران شاه » بعد أن كانت القوات المصرية قد أجهزت على القوات الصليبية فى المنصورة بمساعدة عامة المصريين يوم ٤ ذى القعدة ٦٤٧ هجرية (٨ فبراير ١٢٥٠م) . وتم اعلان وفاة السلطان السابق رسميا

وسلمت « شجرة الدر » مقاليد الحكم لابن زوجها السلطان الشاب الذى تولى قيادة الجيش بنفسه . ثم جرت المعركة الرئيسية ضد الجيش الصليبي قبالة فارسكور وانتهت بالجيش الصليبي بين أسير وقتيل ، وكان لويس التاسع نفسه بين الأسرى .

بيد أن « تورانشاه » جاء اخفاقا أيوبيا جديدا ، وفشل فى الاستجابة للمتحدى الذى تفرضه الظروف التاريخية . وبدلا من أن يحاول توحيد الجهود للقضاء على بقايا الوجود الصليبي فى فلسطين وبلاد الشام بدأ يحيك الدسائس والمؤامرات ضد من خاضوا المعركة بعد وفاة أبيه وصانوا له عرشه فى غيابه . وقد وصفه أحد المؤرخين المعاصرين بأنه « . . . كان سئ التدبير والسلوك ، ذا هوج وخفة . . . » وأخيرا لقي مصرعه بأيدى أربعة من كبار المماليك ، وهو فى معسكره بفارسكور صباح الاثنين ٢٧ محرم ٦٤٨ هجرية (٢ مايو ١٢٥٠ م) .

تبددت دماء « توران شاه » مع مياه نهر النيل ، ومعها تبددت آخر مظاهر السلطة الأيوبية الفعلية فى مصر ، وان بقى لها ظلا يتوارى خجلا الى جانب الأضواء التى فرضت نفسها على مسرح التاريخ فى ذلك الزمان . واختار المماليك - أصحاب السلطة الفعلية - الأميرة « شجرة الدر » لتكون أول سلاطين المماليك . وعلى الرغم من دورها الرائع فى توجيه شئون الحكم والحرب ابان أحداث الحملة الصليبية السابعة وأثناء مرض زوجها السلطان الصالح أيوب « وبعد وفاته ؛ فان الخليفة العباسى رفض الاعتراف بحكمها . وقبضت « شجرة الدر » على زمام الحكم بيد من حديد ، وتخلصت من بقايا الحملة الصليبية وتسلم المصريون دمياط بعد انسحاب شرادم الفرنج منها فى مايو ١٢٥٠ م . وأخذت « شجرة الدر » تتقرب الى الخاصة والعامة من رعاياها . ولكن الرأى العام رفض الاعتراف بحكم امرأة ، وهاجت القاهرة بسكانها وماجت احتجاجا على حكم السلطانة . وبعد ثمانين يوما تنازلت

« شجرة الدر » عن العرش لواحد من أمراء المماليك ، كانت قد اختارته زوجها لها ، هو عز الدين أيبك التركمانى الذى تولى عرش السلطنة باسم « الملك المعز » .

كانت فترة حكم « شجرة الدر » مرحلة انتقالية ، كما كانت خروجها على مسار التراث السياسى الاسلامى . لقد اختارها المماليك ، وهم خديثو عهد بالاسلام ، بفعل الظروف الحرجة التى فرضت شكلا استثنائيا من أشكال الحرجة التى فرضت شكلا استثنائيا من أشكال السلطنة ، فقد رفضها المصريون لأن سلطتها كانت خروجها على الشرع والتقاليد السياسية لبلادهم .

واللافت المنظر أن « سيرة الظاهر بيبرس » لم تجعل شجرة الدر تجلس على عرش مصر ، وانما جعلتها تتزوج « الصالح أيوب » لتثبيت ملكه . ومن ناحية أخرى ، حرص الفنان الشعبى على تصويرها فى صورة محببة الى العقلية العامة ، فقد نفى عنها صفة العبودية ، وجعلها ابنة للخليفة العباسى . بل ان السيرة جعلت « شجرة الدر » تعيش عدة أجيال منذ زمن صلاح الدين الأيوبي حتى تتزوج « الصالح نجم الدين أيوب » فهل يمكن أن يكون الوجدان الشعبى قد أعاد انتاج شخصية شجرة الدر فى هذه الصورة التعويضية تقديرا لدورها فى الدفاع عن البلاد ؟

آخر الشخصيات التاريخية التى تناولتها « السيرة الظاهرية » شخصية « عز الدين أيبك » . ويبدو واضحا أن السيرة اتخذت منه موقفا عدائيا تماما ، فقد جعلت سبب مجيئه الى مصر مشوبا بقدر من الانتهازية والعدوانية . اذ تقول السيرة « . . . كان ملك من الملوك بأرض الموصل [هو أيبك] . . . وكانت تأتية الاخبار بما يجرى فى كل الامصار فبالأمر المقدر بلغه أن مصر عليها ملك من الاكراد الأيوبية يقال له « الصالح أيوب » . وذلك الرجل فقير الحال لا يعرف السلطنة ، ولا

ويكمل الراوى المشهد فيحكى أن بيبرس أمر بالقبض على أيك وجماعته ، وأن يسروا فى الموكب مكشوفى الرأس حفاة الأقدام ، تتخاطفهم تعليقات جارحة من الناس ، فيقول أحدهم : هؤلاء الاثنى يخطفون العمائم فى سكة بولاق ، ويقول الثانى : هؤلاء قتلوا امرأة فى الجيزة ، ويقول ثالث : أنا راحت لى عمة » .

هذا الموقف العدائى الحاد والظاهر فى السيرة تجاه أيك لا نستطيع أن نحدد له سببا على وجه اليقين . بيد أننا قد نجد له مبررا فى شخصية « المعز أيك » المخادعة ، وأساليبه غير الشريفة . فقد كان نمطاً من البشر يبدو لين العريكة سهل المنال ، لا يتخذ لنفسه موقفاً ، ولا يبدي رأياً فى موضوع ؛ ويؤثر أن يطيع من له الأمر فى كل المواقف ، فإذا أمسك بلجام السلطة انقلب وحشاً مستبداً وتجلت فيه صفات الضعيف المتحكم المستبد . فالتاريخ يخبرنا أن أمراء المماليك الأقوياء اختاروا أيك سلطاناً لانهم اعتقدوا انه ضعيف « . . . متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته . . . » . لكنه عندما أيقن أن الأمور قد دانت له خلع السلطان الأيوبى الطفل « الأشرف موسى » الذى كان فى السادسة من عمره وسجنه ، ثم دبر مؤامرة قتل فيها « فارس الدين أقطاي » زعيم المماليك البحرية صديق بيبرس البندقدارى . ولم يلبث هو نفسه أن لقي مصرعه على يد زوجته « شجرة الدر » حين عرفت أنه يسعى للزواج من إحدى بنات البيت الأيوبى ليتخلص منها نهائياً ، وليدعم حكمه بصيغة شرعية بزواجه من الأميرة الأيوبية .

قال عنه المقرئ « . . . قتل خلقاً كثيراً ، وشنق عالماً من الناس بغير ذنب ليوقع فى القلوب مهابته ، وأحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده . . . » (٢٩) فهل يمكن أن يكون الموقف العدائى الذى اتخذته سيرة الظاهر بيبرس من أيك انعكاساً لشخصيته

له عليها أحوال ، فأمر بتجهيز العساكر ، وجاء بهم من كل قطر ، ودفع لهم الأموال حتى صار فى ركبة عظيمة وقال : لا بد أن أملك أرض مصر . . . » . وسار أيك بجيشه حتى وصل حلب فحاصرها ، ثم داهمه مرض شديد . وعرف السلطان بأمر أيك وحملته لأنه « ولى الله المجذوب » الذى ينكشف عنه الحجاب ، وأمر نائب حلب أن يفتح أبواب المدينة أمام أيك وجيشه . وبعد عدد من المتاعب التى يتعرض لها جيش أيك بفضل كرامات الصالح أيوب يصل الى مصر ويتخذ السلطان وزيراً له (٢٥) . والسيرة تجعل أيك أميراً خائناً ظالماً ، فتارة يرأس « هلاون » لكى يستعديه ضد « بيبرس » ، على حين يحاول هو وأعوانه نهب معسكر بيبرس ولكن المصريين يتصدون لأيك ورفاقه (٢٦) ، وتارة أخرى تجعله السيرة متأمرًا مع الفرنج ضد بيبرس (٢٧) ، وتارة ثالثة تجعله متأمرًا بالاشتراك مع القاضى الذى تجعله السيرة نصرانياً رومياً يتخفى فى زى قاض مسلم لهدم البلاد من الداخل عن طريق التجسس والتخريب (٢٨) .

ومن المشاهد المثيرة ، ذلك المشهد الذى ترسمه « السيرة الظاهرية » لأيك وجماعته بعد أن نجح « بيبرس » فى فتح أنطاكية وأخذها من الصليبيين على الرغم من مؤامرات أيك ودسائسه . فقد عاد أيك وجماعته مخدولين وتعرضوا لسخرية أولاد البلد أثناء سيرهم . يقول النص : « . . . فلما رأوهم أولاد البلد قال أحدهم : أنظر يا أخى أيك وجماعته دول كانوا مسافرين فى برمة . قال الآخر : كانوا فى زفته . واحد قال والله انهم متعوسين ان كانوا مسافرين ولا يقعدوا . هذا وهم سائرين والناس تمشق فى أبدانهم ، ومنهم من يضحك عليهم ، ومنهم من يضرب لهم تعبير بحنكه ، ومنهم من يقول : الله لا كان جالى الغلا ولا كياه . . . » .

و « الصالح أيوب » و « شجرة الدر » في قالب ديني حافل برموز الصوفية والزهد ، وملء بأخبار المعجزات والحوارق والكرامات التي تغلب ألباب الجماهير أصحاب المصلحة الحقيقية في السيرة التي تهتم بإبراز دور عامة الناس .

ثالثا : ان الفنان الشعبي يعبر ، في قسوة شديدة، عن الكراهية الشعبية لمن يقفون ضد مصلحة الناس وأمانتهم العامة ، وضد من يتسبب في أضرارهم . كما أن الفنان الشعبي يدين تماما من يخون المثل العليا والقيم التي تمثل النظام الأخلاقي للمجتمع الذي تمثله السيرة . ولذلك كان تجاهل السيرة للكمال الأيوبي ، وبقية أبناء البيت الأيوبي فيما بين صلاح الدين الأيوبي والصالح أيوب ، كما كانت السيرة عدائية تماما إزاء المعز أيك .

رابعا : ان « سيرة الظاهر بيبرس » ، في حقيقة أمرها ، سيرة الشعب المصري في فترة مهمة من تاريخ المنطقة العربية ، ولذا فإن الصياغة الفنية لأحداث التاريخ وتشكيل شخصياته وأدوارهم قد وظفت لخدمة هذا الهدف الثقافي / الاجتماعي بحيث احتفت السيرة بالشخصيات التاريخية التي لعبت دورا في مصلحة الناس ، واتخذت موقفا معاكسا ضد من عملوا لمصلحتهم الشخصية أو تسببوا في الأضرار بالمصالح العامة .

دكتور قاسم عبده قاسم

الغادرة، أم هو رد فعل لكثرة القتل وسفك الدماء الذي ميز فترة حكمه التي دامت حوالي سبع سنين حافلة بالمتاعب في الداخل والخارج ؟ أم أننا يمكن أن نفسر هذا الموقف في ضوء الضرائب الكثيرة التي فرضها أيك على المصريين ووصفها المؤرخون بأنها « مظالم ومصادرات » لا سيما وأن من خلفوا أيك على العرش تمسكوا بهذه الضرائب في أغلب الأحوال .

★ ★ ★

هذه بعض الملامح العامة التي رسمتها « سيرة الظاهر بيبرس » لأهم الشخصيات التاريخية التي عاصرت أحداث تلك الفترة التاريخية ، وربما يكون من المهم أن نعرض بعض الملاحظات الختامية في هذا الموضوع :

أولا : ان الوجدان الشعبي وهو يعيد إنتاج تاريخه لا يهتم كثيرا بالحوادث والأماكن والشخصيات التاريخية والتتابع الزمني في سياقه التاريخي الفعلي ، وإنما يوظف ذلك كله في خدمة هدفه الفني بمضامينه الاجتماعية / الثقافية بحيث يبرز دور عامة الناس في صنع تاريخهم ، وهو الدور الذي أهمله المؤرخون التقليديون لحساب الحكام .

ثانيا : ان البناء الفني المبطل في المفهوم الشعبي يكتسب أهمية خاصة حين يكون البعد الديني العاطفي من أبرز أبعاد شخصيات السيرة الشعبية ، ومن ثم كان اهتمام الفنان الشعبي بتصوير « صلاح الدين الأيوبي »

وعن هذا المؤرخ وكتبه انظر : قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ - قراءة في التراث التاريخي العربي (دار المعارف ١٩٨٥م - طبعة ثانية) ، ص ١١٩ - ص ١٣٣ .

(٤) السيرة ، ج ١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٥) السيرة ، ج ١ ، ص ٤ .

(٦) المقرئ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ،

ص ٢٢ .

(★) حين نذكر اسم « شجرة الدر » (بدون تاء مربوطة) تكون الإشارة إلى الشخصية التاريخية لأن هذا هو اسمها في المصادر التاريخية ، وعندما نذكر « شجرة الدر » تكون الإشارة إلى الشخصية الفنية في السيرة .

(١) سيرة الظاهر بيبرس (طبعة محمد صبيح - بدون تاريخ) ، المجلد الأول ، ص ٢ .

(٢) مخطوط مصور بجامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ .

(٣) مخطوط مصور بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩ .

- (٧) السيرة . ج ١ ، ص ٦ - ص ٨ .
 (٨) السيرة ، ج ١ ، ص ٩ .
 (٩) السيرة ، ج ١ ، ص ١٠ .
 (١٠) السيرة ، ج ١ ، ص ١١ .
 (١١) السيرة ، ج ١ ، ص ١٣ .
 (١٢) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣ ، حيث يذكر أن صلاح الدين الأيوبي شرع فى بناء القلعة سنة ٥٧٣ هجرية .
 (١٣) السيرة ، ج ١ ، ص ٢٤ - ص ٢٥ .
 (١٤) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٩ - ص ٢٣١ .
 (١٥) السيرة ، ج ١ ، ص ٢٩ .
 (١٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٠ - ص ٣٦ .
 (١٧) السيرة ، ج ١ ، ص ٣٧ .
 (١٨) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .
 (١٩) السيرة ، ج ١ ، ص ٣٨ - ص ٣٩ .
 (٢٠) نفسه ، ج ١ ، ص ٤١ ، ص ٤٩ .
 (٢١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٩ - ص ٣٤٢ .
 (٢٢) السيرة . ج ١ ، ص ٢٧٦ .
 (٢٣) السيرة ، ج ١ ، ص ٨٠ ، ج ٢ ، ص ١٠ ، ص ٢٨ ، ص ٧٦ ، ص ٩٥ .
 (٢٤) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .
 (٢٥) السيرة ، ج ١ ، ص ٤٩ - ص ٦٢ .
 (٢٦) يقول نص الرواية ان الخطاب الذى أرسله أيبك الى هلاون كان نصه : « خطاب من أيبك وقلاوون الى أيبك هلاون . اعلم أننا خاص الأعداء للولد بيبرس ، وأنت أيضا عدو له . فإذا طلع النهار فاركب أنت فم كامل رجالك ٠٠ » . وعندما يحاول أيبك نهب معسكر بيبرس الذى رحل الى مكان هلاون ، يتصدى له « عثمان بن الحيلة » وجماعته ، و « عقرب » وجماعته ، و « حرحش » وجماعته (السيرة ، ج ٢ ، ص ٦ - ص ٩ ، ص ٧ - ص ١١) .
 (٢٧) السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٩ ، ص ٥٠ .
 (٢٨) السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، ص ٣٧ - ص ٤١ ، ص ٤٤ - ص ٤٥ .
 (٢٩) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٤ .



مجلة الفنون الشعبية

مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة شهور

عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب